المحاضرة الرابعة عشر

(فرنسا وانكلترا وحرب المائة عام)

كان اعتلاء عائلة كابيه العرش الفرنسي (٩٧٨ – ١٣٢٨م) ونشوب حرب المائة عام أهم الأحداث التي شغلت التاريخ الفرنسي في العصر الوسيط، ويعتقد البعض أن الحرب في واقعها كانت سجالاً بين فرنسا وانكلترا منذ وفاة وليم الفاتح أو النورماندي (١٠٦٦-١٠٨٧م)، ولهذا فهم يقسمون تلك الحرب إلى مرحلتين:

الأولى: يشار لها بحرب المائة عام الأولى والتي تنتهي حسب رأيهم سنة (١٣٣٦م).

الثانية: هي التي امتدت خلال المدة (١٣٣٧-١٤٥٣م).

وقد سميت الحرب بتلك التسمية بمجرد الاصطلاح لأنها دامت في الواقع أكثر من قرن ولهذه الحرب أسباب غير مباشرة وأخرى مباشرة. ولعل من أهم الأسباب غير المباشرة:

- الخلاف المزمن بين ملوك الإنكليز والفرنسيين حول الأملاك الإنكليزية داخل فرنسا سيما مقاطعة الفلاندرز، ومشاكل دوقيتي أوكتين وبرغنديا.
- تحالف ملوك فرنسا مع زعماء سكوتلاند وتحريضهم على التمرد ضد الإنكليز.
- عمليات القرصنة الفرنسية والانكليزية في البحار الاقليمية.

أما الأسباب المباشرة فتكمن في موضوعين هما:

وراثة العرش الفرنسي:

فقد اعتبر ادوارد الثالث ملك انكلترا (١٣٢٧ – ١٣٧٧م) نفسه أحق بالعرش الفرنسي من فليب فالوا (الذي حكم فرنسا بعد أسرة آل كابيه) فقد ترك الملك الكابي فليب الرابع أو الجميل، ثلاثة أولاد حكموا بالتعاقب وهم لويس العاشر (١٣١٤-١٣١٦م) و فليب الخامس (١٣١٦ – ١٣٢٣م) وشارل الرابع (١٣٢٣– ١٣٢٨م). ولم ينحب أي منهم وريثاً لعرش آل كابيه.

وقد تزوج ادوارد الثاني من أختهم ايزابيلا فولدت ادوارد الثالث ملك انكلترا ولهذا فعند انقطاع حبل الوراثة لعائلة آل كابيه ادعى ادوارد الثالث أحقيته بالعرش الفرنسي من جانب امه إيزابيلا. غير أن الفرنسيين رفضوا ذلك الادعاء بعد أن تمسكوا بسابقة دستورية تشير إلى أنه لا يمكن لأية امرأة أن ترث عرش فرنسا، وعليه فلا يحق لإدوارد المطالبة بالعرش الفرنسي من جهة والدته. هذا مع العلم أن تلك السابقة الدستورية الفرنسية قد أشار إليها

القانون السالي الميروفينجي. وعليه فقد وقع اختيار أمراء فرنسا على فيليب فالوا لأنه أقرب وارث من الذكور لعائلة آل كابيه، فهو ابن أخ فليب الرابع أو الجميل.

مشكلة إمارة الفلاندرز:

هي من الإمارات التابعة لملوك فرنسا، وهي في ذات الوقت من الأسواق الهامة للصوف الإنكليزي. وكانت الإمارة في نزاع مستمر مع ملوك فرنسا. وحدث أن قامت بها ثورة سنه (١٣٣٧م) قادها أرباب معامل النسيج وذلك لانقطاع استيراد الصوف من انكلترا، بناء على أوامر الملك ادوارد الثالث لعلاقاته العدائية مع ملك فرنسا. لهذا تعاقد قادة الثورة مع ادوارد الثالث على أن يكونوا بجانيه حينما يعلن نفسه ملكاً على فرنسا، مقابل سماحه باستمرار التجارة بين الفلاندرز وانكلترا. وعلى أثر ذلك اندلعت نيران الحرب الأهلية في الفلاندرز، والتي انقسم فيها السكان إلى فريقين تألف الأول من الطبقة المتوسطة، أما الثاني فضم رجال الإدارة والإقطاعيين حلفاء ملك فرنسا وأصبح النزاع هناك سافراً بين الجيوش الإنكليزية والفرنسية. لذا أعلن فليب فالوا أو فليب السادس (١٣٢٨ – ١٣٥٠م) مصادرة كافة الممتلكات الإنكليزية في فرنسا.

لقد خسر الفرنسيون أول معركة بحرية هامة في هذه الحرب، وذلك سنة (١٣٤٠م) في موقعة سلويس. كما اندحروا في أول معركة برية كبرى سنة (١٣٤٦م) وهي معركة كريسي. واستولى الإنكليز على ميناء كاليه سنة (١٣٤٧م) وأنزلت الجيوش الانكليزية هزيمة ساحقة بجيوش الملك الفرنسي جون الصالح (١٣٥٠ – ١٣٦٤م) في موقعة بوانيه ووقع اسيراً بيد الجيوش الإنكليزية سنة (١٣٥٦م) التي كانت تحت قيادة الابن الأكبر لإدوارد الثالث الملقب بالأمير الأسود. فأصبح الملك شارل – ابن جون الصالح وصياً على العرش طيلة أسر والده خلال المدة (١٣٥٦ – ١٣٦٤م) وعانت فرنسا في تلك الفترة أهوالاً جساماً بسبب

- الفوضى واختلال الأمن، إذ كانت عصابات اللصوص وقطاع الطرق تعيث فساداً في الأراضي الفرنسية خالقة مصاعب للسلطات.
- انتشار وباء الطاعون الذي حصد ثلث الارواح الفرنسية.
- ثورات الفلاحين العنيفة بسبب سوء معاملة الاقطاعيين ونواب الملك الفرنسي وجامعي الضرائب لهم، فذهب ضحيتها جموع غفيرة من الناس.

وعلى اثر هذه الثورات أمر الوصي بانعقاد مجلس الطبقات لينظر في الأمر. ونظراً لعدم مقدرة النبلاء ورجال الدين على معالجة الوضع حاول الممثلون للطبقة المتوسطة انتزاع الحكم وقائد الطبقة المتوسطة هو إيتين مارسيل (Etienne Marcel) وهو تاجر من تجار باريس وأحد اعضاء مجلس الطبقات وأصدرت الطبقة المتوسطة عدة مراسيم في هذا الشأن سنة (١٣٥٧م) يُشار لها بالمراسيم الكبرى لكي يسير بموجبها الوصي في حكم البلاد. إلا

أن محاولة مارسيل هذه قد باءت بالفشل على أثر الشائعات التي دارت حول مارسيل بأنّه عميل لملك نافار حليف الإنكليز، وأنه من المتزعمين لثورة الفلاحين في فرنسا. لهذا نجح الوصي من اشعال ثورة ضده في باريس وأعلنه خائناً وأسفرت الحادثة عن مقتل مارسيل قائد الطبقة المتوسطة واستعادة الوصي لحقوقه الاستبدادية واخماد ثورة الفلاحين سنة (١٣٥٨م) بشدة متناهية.

وعلى إثر اخماد ثورة الفلاحيين توقفت الحرب مؤقتاً بين الإنكليز والفرنسيين بصلح بريتاني سنة (١٣٦٠م) الذي اعترفت فيه فرنسا بسيادة انكلترا على ثلث الأراضي الفرنسية. واتفق فيه على اطلاق سراح جون الصالح على أن يدفع فدية كبيرة. غير أن الأخير لم يتمكن من دفع الأموال إلى الانكليز لهذا سلّم نفسه ثانية اليهم، وبقي أسيراً في لندن حتى وفاته سنة (١٣٦٤م) وقد هيأت الظروف للملك الفرنسي شارل الخامس (١٣٦٤ – ١٣٨٠م) قائداً عسكرياً موهوباً هو برتران دو كسكلان (Bertram Du Guesclin) الذي حيّر الإنكليز بخططه العسكرية المبتكرة، وأحرز عدة انتصارات على الجيوش الإنكليزية حرر بها أكثرية الاراضي الفرنسية عدا بوردو وبايون وبرست وكاليه وشوريك.

ثم اصابت فرنسا انتكاسات شديدة على اثر وفاة شارل الخامس وذلك لان ابنه شارل السادس (١٣٨٠-١٤٢٣م)

كان في عمر الثانية عشر فأصبحت السياسة تسير بموجب أهواء أقاربه الذين طردوا الوزراء المخلصين من ذوي المواهب الذين ساسوا البلاد بحكمة أثناء حكم والده. وأخذت حاشية شارل السادس تنظر باحتقار إلى كبار رجالات الدولة الذين لم ينحدروا من أصول ارستقراطية، كما أنهم بددوا مالية الدولة في مشاريعهم الخاصة. ومع ذلك فقد حاول الملك عند بلوغه السن القانونية إصلاح ما أفسدته هذه الزمرة من أهله إلا أنه أصيب بمرض عقلي سنة (١٣٩٣م) أفقده الرشد. واستمرت سياسة فرنسا متعثرة طيلة عهود زمن الوصاية. فانقسمت البلاد في تلك الفترة بين فئتين متطاحنتين، الأولى تحت قيادة أمير برغندي جون الشجاع عضو مجلس الوصاية، أما الثانية فتزعمها أرماناك أمير أورليان. والسبب المباشر لهذا الانشقاق هو أغتيال الزعيم الأورلياني من قبل خصمه الأمير البرغندي ليخلو له الجو في مجلس الوصاية فاندلعت الحروب الأهلية في باريس وخارجها.

استغلت انكلترا الفرصة فاستأنفت الحرب في تلك الفترة الحرجة من تأريخ فرنسا في عهد الملك البريطاني هنري الخامس في وقت كانت فيه السيادة على العرش الفرنسي لفئة الأرماناك، وتمكّن هنري الخامس من دحر الجيوش الفرنسية في موقعة اجنكورت سنة (١٤١٥م) وذلك للدور الذي لعبته المدفعية الإنكليزية وبالرغم من انتصارات الإنكليز فإنَّ الحروب الأهلية في فرنسا بقيت على ما كانت عليه.

وقد اضطرت الفئة البرغندية إلى الاتفاق مع الإنكليز سنة (١٤١٩م) للانتقام من أعدائهم فئة الارماناك التي اغتالت هي بدورها جون الشجاع زعيم الفئة الأولى. وكان من بين المتعاونين مع الإنكليز ايزابيلا أم شارل السادس التي جعلت ولدها ضحية أخلاقية بتهتكها. وعليه فقد أصبح هنري الخامس وريثاً للعرش الفرنسي على أثر احتلاله باريس وعقده معاهدة تروي سنة (١٤٢٠م) مع الجانب الفرنسي .

ثم توفي كل من شارل السادس وهنري الخامس سنة (١٤٢٢م) ، فادعى هنري السادس ابن هنري الخامس ملك انكلترا أحقيته بالعرش الفرنسي، ولكن الفرنسيون رفضوا ذلك فالتف قسم من أمراء فرنسا حول شارل الملقب بالوصي والمطالب بالعرش الفرنسي. وهكذا فقد مثل الاحتلال الإنكليزي لباريس وتربعهم على العرش الفرنسي إهانة بالنسبة لمشاعر الفرنسيين، وكان الجو مهيئاً في دومرمي (Domremy) على حدود اللورين لقيام جان دارك تلك الشابة القروية التي خيل إليها أن القوى الإلهية أرسلتها لإخراج الإنكليز من بلادها، وتتويج شارل الوصي الوصي ملكاً في كنيسة ريمز. لقد تمكنت الفتاة من اقناع الوصي وحاشيته بأهمية الرسالة التي تحملها، فجهزها بجيش صغير دكت به أسوار مدينة اورليان التي يحتلها الإنكليز سنة (١٤٢٩م) ثم توجت جان دارك الوصي شارك فعلاً في كنيسة ريمز تحت اسم شارل السابع. وقد رغبت جان دارك في الانعزال بعد انتهاء مهمتها والذهاب لأهلها، فلم يسمح لها الملك بذلك واستمرت تكافح من أجله. وقد أثارت قيادتها للجيش الملكي الفرنسي حسد القادة وكبرياء الفرسان فسهلوا وقوعها أسيرة بيد أمير برغندي، الذي باعها إلى الإنكليز سنة (١٤٣٠م) وقد أصر هؤلاء على إحالتها إلى محكمة دينية أدانتها بالكفر والهرطقة، وقضت بإعدامها حرقاً سنة (١٤٣١م) ولها من العمر إحدى وعشرين سنة. وقد حرّك إقدامها على الموت رافعة الرأس موفورة الكرامة مشاعر المسؤولين عن حرقها فلم يتمالك أحدهم أن صاح بأعلى صوته "لقد خسرنا الحرب بإحراقنا قديسة". وكان سقوط أورليان نقطة التحول في حرب المائة عام. إذ حاول الإنكليز عبثاً ترسيخ أقدامهم بعد ذلك التأريخ في فرنسا، فقد سرت موجة وطنية عارمة في البلاد الفرنسية تمثلت سياسياً في شخصية رشمونت (Richmont) وزير شارل السابع الذي تمكن من اقصاء كافة الخونة من الحاشية الملكية. وتمكن الفرنسيون من استرداد باريس سنة (١٤٣٦م) وقد اضطر الانكليز إلى طلب الهدنة التي استمرت من (١٤٤٤– ١٤٤٩م) وقد استعد اثناءها الفرنسيون لاسترداد بقية اراضيهم وخاصة بعد أن تم الاتفاق بين زعيم البرغنديين فليب الصالح والملك الفرنسي شارل السابع. وما أن استؤنفت الحرب حتى كانت الانتصارات تتوالى على الفرنسيين ولم يبق بيد الإنكليز سنة (١٤٥٣م) غير ميناء كاليه.